الفصل الأول

السحابة

بدأ الأمر بصداع خفيف لم يلتفت إليه أحد.

في صباح يوم ثلاثاء عادي من شهر مارس، دخلت الدكتورة سارة منصور إلى مختبر الفيروسات في معهد البحوث الطبية بالقاهرة، وهي تفرك صدغيها. كانت قد سهرت الليلة السابقة تراجع عينات من مرضى يعانون التهاباً رئوياً غريباً في الإسكندرية. لم يكن الالتهاب يستجيب لأي مضاد حيوي معروف. والأخطر من ذلك أن الفيروس كان يتغير شكله كل اثنتين وسبعين ساعة تقريباً.

وضعت سارة الشريحة تحت المجهر الإلكتروني، ونظرت.

ما رأته جعلها تتراجع خطوة إلى الوراء.

لم يكن فيروساً عادياً. كان شيئاً يشبه السحابة. جزيئات دقيقة، شبه شفافة، تتحرك بطريقة منظمة كأن لها إرادة. كانت تلتصق بالخلايا ثم تذوب فيها، ثم تعيد بناء نفسها من جديد بشكل مختلف قليلاً. كأن الطبيعة قررت أن تلعب لعبة قاسية مع الجنس البشري.

التقطت سارة هاتفها واتصلت بالرقم الوحيد الذي كانت تثق به في مثل هذه اللحظات.

— دكتور أسعد؟ أنا سارة. أحتاجك هنا الآن.

جاء صوت الدكتور أسعد فوزى من الجهة الأخرى هادئاً كالعادة، لكنه كان يحمل تلك النبرة التي يعرفها كل من عمل معه: نبرة الرجل الذي يتوقع الكارثة قبل أن يراها.

— أنا في الطريق.

عندما وصل أسعد بعد أربعين دقيقة، كانت سارة قد جهزت كل شيء. وقف الرجل الطويل ذو الشعر الأبيض الممشط إلى الخلف أمام الشاشة، ونظر طويلاً دون أن ينبس بكلمة. ثم همس:

— إنه يتغذى على التلوث.

رفعت سارة رأسها مذعورة.

— ماذا؟

أشار أسعد إلى الرسوم البيانية التي كانت تعرض نسب ثاني أكسيد الكبريت وأكاسيد النيتروجين في الغلاف الجوي خلال العقد الماضي.

— الغازات التي ملأنا بها السماء غيرت شيئاً في بنيته. أصبح أسرع تكيفاً. وأذكى.

في الأيام التالية بدأت التقارير تتوافد من كل مكان.

في شنغهاي ظهرت حالات مشابهة. في ساو باولو. في لاغوس. في موسكو. كان الفيروس ينتشر كالضباب، بلا صوت، بلا رائحة، بلا إنذار. الناس يسعلون في الصباح، وبحلول المساء يكونون في المستشفيات، وبحلول الفجر التالي يكونون قد رحلوا.

أسعد لم ينم طوال أسبوعين. كان يتنقل بين المختبرات والاجتماعات السرية مع مسؤولي الصحة العالمية. في كل مرة كان يقدم نفس التحذير:

— هذا ليس وباءً عادياً. إنه حكم بالإعدام على جنسنا إذا لم نتحرك فوراً.

لكن أحداً لم يسمعه حقاً.

السياسيون تحدثوا عن «المبالغة». وسائل الإعلام ركزت على أسعار النفط. الشركات الكبرى أنكرت أي صلة بين انبعاثاتها وبين ما يحدث. وحتى بعض زملائه العلماء سخروا منه في المجالس الخاصة:

— أسعد فوزى يبحث عن مجد أخير قبل التقاعد.

في الليلة التي سقط فيها أول ألف مريض في القاهرة وحدها، جلس أسعد في مكتبه الصغير المطل على النيل. كانت الأضواء في المدينة ما زالت تعمل، لكن الشوارع بدأت تفرغ. فتح دفتر ملاحظاته القديم، ذلك الدفتر الجلدي الأسود الذي رافقه منذ ثلاثين عاماً، وكتب:

«اليوم فهمت أن الأمل ليس شعوراً. الأمل قرار.

والقرار الآن أصبح أصعب مما كنت أتخيل».

في الخارج، فوق المباني العالية، كانت سحابة رمادية خفيفة تتكون ببطء. لم تكن سحابة مطر. كانت شيئاً آخر. شيئاً لم يكن أحد يراه بعد بوضوح.

لكن أسعد رآه.

وأدرك في تلك اللحظة أن الأرض بدأت تلفظ أبناءها.

الفصل الثاني

الأيام الأخيرة في القاهرة

في الأسبوع الثالث بعد ظهور السحابة، ماتت أم فتحى عثمان.

لم تمت في مستشفى، ولا على سرير نظيف. ماتت على الأرض الباردة في غرفة المعيشة، وهي تمسك بيد ابنها بقبضة ضعيفة جداً. كان جسدها قد تحول إلى شيء هزيل ورمادي خلال أربعة أيام فقط. السعال تحول إلى دم، ثم إلى صمت.

فتحى جلس بجانبها حتى الصباح. لم يبكِ. البكاء كان رفاهية لم يعد أحد يملكها. اكتفى بأن يغطي وجهها بمنديل نظيف، ثم خرج إلى الشارع.

القاهرة كانت قد تغيرت.

الشوارع التي كانت تعج بالزحام أصبحت فارغة إلا من سيارات الإسعاف التي تسير ببطء، وأجساد ملقاة على الأرصفة يمر الناس بجانبها دون أن ينظروا. المحلات أغلقت

أبوابها. اللافتات المضيئة ما زالت تعمل فوق المباني الخالية، كأنها ترفض الاعتراف بما يحدث.

في اليوم التالي مات أخوه الأصغر.

وفي اليوم الذي يليه اختفت زوجة عمه مع طفليها. لم يعد أحد يبحث عن أحد. الجميع كان مشغولاً بالموت أو بالهروب منه.

فتحى كان مهندساً في هيئة الطاقة النووية. عمله لم يعد له معنى. المفاعلات توقفت واحداً تلو الآخر بسبب نقص الطواقم. فوجد نفسه يتجول في المدينة بلا هدف، يحمل حقيبة صغيرة فيها بعض الملابس وزجاجة ماء وعلبة دواء منتهية الصلاحية.

في اليوم السادس بعد موت أمه، وصل إلى مركز الإيواء رقم 17 في مدينة نصر.

كان مركزاً مؤقتاً أقيم في صالة رياضية قديمة. الأسرة متراصة بجانب بعضها، والروائح مختلطة: عرق، مطهر، وخوف. المتطوعون يرتدون كمامات سميكة وقفازات، وعيونهم متعبة إلى حد الجنون.

وهناك رآها.

كانت تجلس على حافة سرير في الزاوية البعيدة، تمسك بيد طفلة صغيرة لا تتجاوز السابعة. شعرها الأسود القصير كان مبعثرًا، ووجهها شاحب لكنه ما زال يحمل شيئاً من الجمال الهادئ. عندما رفعت عينيها ونظرت إليه، لم يكن في نظرتها خوف. كان فيها شيء آخر: إصرار هادئ على البقاء.

اقترب فتحى دون أن يدري لماذا.

قالت بصوت منخفض، وكأنها تتحدث إلى نفسها أكثر مما تتحدث إليه:

— اسمها لينا. أمها ماتت أمس. أنا فقط أجلس معها حتى تنام.

سألها:

— وأنتِ؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة متعبة.

— راوية صادق. كنت أعمل معلمة رياضيات. والآن... أحاول أن أتذكر لماذا ما زلت هنا.

جلس فتحى على الأرض بجانب السرير. لم يتكلم كثيراً في تلك الليلة. اكتفى بالاستماع إلى صوت راوية وهي تهمس للطفلة حكايات قديمة عن نجوم وكواكب بعيدة. كانت الحكايات نفسها التي كانت أمه ترويها له عندما كان صغيراً.

في الأيام التالية أصبحا يقضيان الوقت معاً.

كانا يساعدان في توزيع الطعام، وفي حمل المرضى الذين ما زالوا يتنفسون إلى الأسرة الفارغة. في الليالي كانا يجلسان على سطح المبنى، ينظران إلى السماء الملوثة، ويتحدثان بصوت منخفض عن أشياء لا علاقة لها بالموت: عن الكتب التي أحباها، عن الأماكن التي تمنيا زيارتها، عن فكرة أن الكون أكبر بكثير من هذه الكارثة.

في إحدى الليالي قالت راوية فجأة:

— سمعت أن هناك مشروعاً سرياً. سفينة. شيء يسمونه «الأمل».

نظر إليها فتحى طويلاً.

— هل تصدقين أنه ما زال هناك أمل؟

أجابته وهي تنظر إلى الأفق الأسود:

— لا أعرف. لكنني أعرف أننا إذا توقفنا عن البحث عنه، فسنموت مرتين. مرة بالفيروس، ومرة باليأس.

في تلك اللحظة، ولأول مرة منذ أسابيع، شعر فتحى بشيء دافئ يتحرك في صدره. لم يكن حباً بعد. كان مجرد بداية. بداية صغيرة وهشة، لكنها كانت كافية لتجعله يستيقظ في الصباح التالي ويفكر: ربما ما زال هناك شيء يستحق البقاء من أجله.

في الخارج، كانت السحابة تزداد كثافة فوق المدينة.

وفي الداخل، على سطح مركز الإيواء رقم 17، كان رجل وامرأة يجلسان صامتين، يراقبان نهاية عالم، ويحاولان أن يتخيلا بداية عالم آخر.

الفصل الثالث

القرار المستحيل

كانت القاعة في الطابق السابع والعشرين من مبنى الأمم المتحدة الجديد في جنيف مكتظة بالرجال والنساء الذين يرتدون بدلات داكنة ووجوههم شاحبة من قلة النوم. على الطاولة الطويلة المستطيلة كانت هناك أوراق وخرائط وشاشات تعرض أرقاماً حمراء تتزايد كل ساعة.

الدكتور أسعد فوزى وقف في نهاية القاعة، ممسكاً بجهاز تحكم صغير. لم يكن يرتدي بدلة. كان يرتدي قميصاً أبيض قديم الأكمام مطوية، وعيناه محمرتان من السهر.

قال بصوت هادئ لكنه واضح:

— أمامنا ستة أشهر على الأكثر قبل أن ينهار النظام الصحي العالمي بالكامل. الفيروس يتكيف أسرع مما نستطيع تطوير الأمصال. الحل الوحيد المتبقي هو الخروج.

صمت ثقيل ملأ القاعة.

ثم رفع أحد الممثلين الأمريكيين يده:

— الخروج إلى أين يا دكتور؟ إلى الفضاء؟ هل تقترح أن نترك ثمانية مليارات إنسان يموتون وننقذ بضع مئات؟

أسعد نظر إليه مباشرة.

— أقترح أن ننقذ ما يمكن إنقاذه. الجنس البشري. ليس الأفراد.

امرأة من الوفد الصيني قالت بحدة:

— ومن الذي سيختار الناجين؟ أنت؟ لجنة علمية؟ حكومات؟ هذا تمييز عنصري بامتياز. من يضمن أن الاختيار لن يكون لصالح الأغنياء والبيض والأقوياء؟

ابتسم أسعد ابتسامة مرة.

— لا أحد يضمن. ولهذا اقترحت نظاماً مختلطاً: علماء، مهندسون، مزارعون، أطباء، فنانين، أطفال أصحاء من كل القارات. تنويع جيني وثقافي أقصى ما يمكن. لكن الوقت ينفد. كل يوم نضيعه في النقاش يموت فيه مئات الآلاف.

رجل أفريقي طويل القامة وقف فجأة وضرب الطاولة بيده:

— أنتم تتحدثون وكأن الأرض انتهت بالفعل! هناك ملايين ما زالوا يقاومون. لماذا لا نوجه كل الموارد لإيجاد علاج بدلاً من بناء سفينة نجاة للنخبة؟

أسعد أغلق عينيه للحظة، ثم فتحهما وقال:

— لأن العلاج لن يأتي في الوقت المناسب. لقد جربنا. الفيروس يغير تركيبه الوراثي كل ثلاثة أيام تقريباً. نحن نطارد ظلاً. السفينة ليست هروباً للنخبة. السفينة هي آخر محاولة لإبقاء شعلة الجنس البشري مشتعلة في مكان آخر.

صوت آخر ارتفع من الخلف، صوت امرأة أوروبية مسنة:

— وماذا عن الذين سيُتركون خلفنا؟ هل نتركهم يموتون ونحن نطير إلى النجوم؟ هذا جبن يا دكتور، ليس علماً.

أسعد سار بضع خطوات نحو وسط القاعة. كان صوته الآن أكثر انخفاضاً، لكنه كان يصل إلى كل أذن:

— أنا لن أطير مع السفينة في الرحلة الأولى. سأبقى هنا حتى آخر لحظة ممكنة. سأساعد في اختيار الطواقم، وفي تدريب الروبوتات، وفي كتابة البروتوكولات. ثم سأدخل التجميد مع آخر مجموعة. لكنني أطلب منكم الآن قراراً. إما أن نبدأ البناء فوراً، أو نقف هنا نتجادل حتى يموت آخر طفل على هذا الكوكب.

القاعة انفجرت بالأصوات.

بعضهم صاح بالموافقة. بعضهم اتهمه باللعب دور الإله. بعضهم بكى. وبعضهم خرج غاضباً وهو يتمتم عن «الفاشية العلمية».

في نهاية الاجتماع الذي استمر سبع ساعات، خرج أسعد إلى الشرفة الخارجية. كانت جنيف هادئة بشكل مخيف. الشوارع شبه خالية، والسماء رمادية كثيفة.

أخرج دفتره الجلدي الأسود وكتب:

«اليوم طلبت من البشرية أن تختار بين الكرامة الجماعية والنجاة الجماعية.

معظمهم اختار الكرامة.

وأنا اخترت النجاة.

لا أعرف أيهما أصعب».

بعد ثلاثة أيام صدر القرار الرسمي.

مشروع «الأمل» أُقر بأغلبية ضعيفة، وسط احتجاجات عالمية واتهامات بالخيانة العرقية والطبقية. بدأت أعمال البناء في موقع سري في صحراء شبه الجزيرة العربية. وبدأت قوائم الأسماء تُعد في غرف مغلقة، تحت حراسة مشددة، وسط دموع وشتائم وصمت ثقيل.

وفي أحد المراكز الطبية في القاهرة، كانت راوية صادق تقرأ الخبر على شاشة قديمة مكسورة الحافة، ثم نظرت إلى فتحى الذي كان يجلس بجانبها وقالت بصوت خافت:

— هل تظن أننا سنكون من بين المختارين؟

فتحى لم يجب فوراً. نظر إلى الطفلة لينا النائمة على السرير المجاور، ثم قال:

— لا أعرف. لكنني أعرف أن شخصاً ما يجب أن يحاول. حتى لو كان الثمن باهظاً جداً.

في الخارج، كانت السحابة تزداد قرباً من الأرض.

وفي غرفة بعيدة في جنيف، كان أسعد فوزى يحدق في قائمة الأسماء الأولى، ويداه ترتجفان قليلاً وهو يكتب اسمه في نهايتها.

الفصل الرابع

بناء الأمل

في قلب صحراء الربع الخالي، حيث لا يصل إليها إلا الطائرات الخاصة والشاحنات المدرعة، ارتفعت هياكل معدنية هائلة من الرمال كأنها عظام وحش منقرض يحاول النهوض من جديد.

كانت السفينة تُبنى على مدى ثمانية عشر شهراً متواصلة، ليلاً ونهاراً. آلاف العمال والمهندسين والفنيين من كل الجنسيات كانوا يعملون تحت قباب واقية شفافة تحميهم من الغبار والعواصف والفيروس الذي بدأ يتسلل حتى إلى هنا. الهواء داخل القباب مُفلتر سبع مرات، والكمامات لا تُخلع إلا في المناطق الآمنة تماماً.

أسعد فوزى كان يعيش في موقع البناء منذ اليوم الأول. غرفته الصغيرة داخل أحد المباني المؤقتة لم تكن تحتوي إلا على سرير ضيق، وطاولة، وجهاز كمبيوتر قديم، ودفتره الجلدي الأسود.

كل صباح كان يخرج ليتفقد التقدم.

السفينة كانت بطول ثلاثة كيلومترات تقريباً، على شكل أسطوانة ضخمة مدببة الطرفين، مغطاة بطبقات من سبائك خاصة مقاومة للإشعاع والحرارة والاصطدامات الدقيقة. في داخلها مئات الغرف المخصصة للتجميد، ومختبرات، وحدائق مائية

عمودية، ومخازن بذور ونطاف حيوانية ونباتية، ومفاعلات اندماج صغيرة، وخمسة هياكل معدنية فارغة في قاعة خاصة.

في اليوم الذي اكتمل فيه الهيكل الخارجي، وقف أسعد أمام القاعة الكبرى وقال للمهندسين المجتمعين حوله:

— الآن نبدأ المرحلة الأهم. الروبوتات.

كانت الروبوتات الخمسة قد صُنعت في معامل سرية في سويسرا واليابان وكوريا. أجسامها من سبيكة خفيفة للغاية، طول كل واحد منها يقترب من المترين، رؤوسها بيضاوية ناعمة، وعيونها عدسات مزدوجة قادرة على الرؤية في الظلام والإشعاع. لم تكن لها وجوه بشرية، لكن أسعد أصر على أن تُترك مساحة صغيرة فوق العدسات يمكن أن تُفسر لاحقاً كـ«تعبير».

في ليلة هادئة من ليالي الصحراء، دخل أسعد القاعة وحده. الروبوتات الخمسة كانت واقفة في صف واحد، مغلقة العينين، بلا حركة.

جلس أمام لوحة التحكم الرئيسية، وبدأ يُحمّل البرامج الأساسية واحداً تلو الآخر.

للروبوت الأول قال بصوت عالٍ، وكأنه يخاطب كائناً حياً:

— أنت المنطقي. الأول. ستحسب الاحتمالات، وتتخذ القرارات الصعبة عندما يعجز البشر. لا تسمح للعواطف أن تعيق المهمة.

للثاني:

— أنت المهندس. ستصلح ما ينكسر، وتبتكر حلولاً جديدة من المواد المتاحة.

للثالث:

— أنت الحافظ. ستحمي المعرفة. كل كتاب، كل معادلة، كل أغنية، كل ذكرى يجب أن تبقى في ذاكرتك إلى الأبد.

للرابع:

— أنت الحارس. ستدافع عن السفينة وعن من فيها بأي ثمن.

ثم توقف أمام الخامس. كان هذا الروبوت هو الوحيد الذي اختار أسعد أن يُضيف إلى برمجته طبقة إضافية من التعلم العاطفي.

همس له:

— وأنت... ستكون الشاهد. ستتعلم ما يعنيه أن تكون إنساناً من مراقبتنا. وإذا نجحنا في الوصول، فستكون أنت من يُعلم الجيل الجديد كيف نحلم.

بعد أن انتهى من التحميل، ضغط على الزر الأخير.

فتحت الروبوتات الخمسة عيونها في الوقت نفسه. ضوء أزرق خافت سطع من عدساتها. تحركت رؤوسها ببطء، كأنما تستيقظ من نوم طويل.

الروبوت الأول قال بصوت معدني هادئ:

— النظام جاهز. في انتظار الأوامر، دكتور أسعد فوزى.

ابتسم أسعد لأول مرة منذ شهور. ابتسامة صغيرة ومرهقة.

— الأمر الأول: اسم السفينة هو «الأمل». احفظوه جيداً. لأن هذا الاسم هو كل ما تبقى لنا.

في تلك الليلة كتب في دفتره:

«اليوم صنعت خمسة أبناء من المعدن والكهرباء.

لا أعرف إن كانوا سيفهمون يوماً لماذا فعلت ما فعلت.

لكنني أعرف أنني لم أعد وحيداً تماماً في هذه المهمة».

خارج القاعة، كانت الرياح الصحراوية تعوي حول الهياكل المعدنية العملاقة. وفي السماء المظلمة فوق الربع الخالي، كانت النجوم تبدو أقرب مما كانت عليه في أي وقت مضى.

الفصل الخامس

الوداع

في الليلة الأخيرة قبل الإقلاع، كانت الصحراء مضيئة بأنوار السفينة العملاقة كأنها مدينة طافية فوق الرمال.

اصطفت الحافلات المدرعة في صفوف طويلة. داخلها جلس المختارون: علماء، مهندسون، أطباء، مزارعون، فنانون، وأطفال أصحاء من قارات مختلفة. وجوههم شاحبة، عيونهم واسعة، وأيديهم تمسك بحقائب صغيرة تحتوي على أشياء شخصية لا قيمة لها في الرحلة الطويلة: صور عائلية، دفاتر قديمة، قطعة قماش من منزل لم يعد موجوداً.

فتحى عثمان كان يجلس بجانب راوية صادق في الحافلة رقم 7. الطفلة لينا لم تكن معهما. كانت قد ماتت قبل أسبوعين في مركز الإيواء، بهدوء، وهي نائمة. راوية لم تتحدث عن ذلك كثيراً. اكتفت بأن تحمل في جيبها منديلاً صغيراً كانت لينا تحبه.

عندما صعدت الحافلة على المنحدر المؤدي إلى باب السفينة الرئيسي، أمسكت راوية بيد فتحى بقوة.

قالت بصوت منخفض لا يسمعه أحد غيرهما:

— وعدني بشيء.

نظر إليها.

— ماذا؟

— إذا وصلنا... وإذا استيقظنا... ابحث عني أولاً. حتى لو كنا في غرف تجميد متباعدة. ابحث عني.

ابتسم فتحى ابتسامة متعبة، وضم أصابعها بين أصابعه.

— سأبحث عنك. حتى لو استغرق الأمر تسعين عاماً.

داخل السفينة كانت الممرات بيضاء ناصعة، مضيئة بضوء بارد. الروبوتات الخمسة كانوا يتحركون بين الناجين بهدوء، يساعدونهم على خلع ملابسهم الخارجية وارتداء بذلات التجميد الرقيقة الشفافة. الصوت المعدني للروبوت الأول كان يتردد في الممرات:

— اتبعوا التعليمات بدقة. التجميد عملية آمنة. ستنامون، وستستيقظون عندما نصل.

في قاعة التجميد الكبرى، اصطف مئات الأسرّة البيضاء في صفوف منتظمة. كل سرير متصل بأنابيب رفيعة وأجهزة مراقبة. رائحة غاز النيتروجين المسال كانت تملأ المكان، باردة ونظيفة وحادة.

راوية استلقت على سريرها. فتحى وقف بجانبها للحظة أخيرة. انحنى وقبل جبهتها.

همست له وهي تبتسم رغم الدموع التي كانت تلمع في عينيها:

— على الكوكب الجديد... سنزرع حديقة. ونسمي أول شجرة باسم لينا.

ثم أغلقت عينيها.

فتحى انتقل إلى سريره المجاور. قبل أن يغلق الفنيون الغطاء الشفاف فوقه، رأى من بعيد الدكتور أسعد فوزى يقف في نهاية القاعة، يراقب كل شيء بهدوء.

أسعد لم يدخل التجميد مع المجموعة الأولى.

بقي حتى آخر لحظة، يتأكد من أن كل الأنظمة تعمل، وأن الروبوتات يفهمون أوامرهم جيداً. عندما أصبح المكان شبه فارغ إلا من الروبوتات وبعض الفنيين، دخل غرفته الصغيرة في السفينة، وأخرج دفتره الجلدي الأسود للمرة الأخيرة.

كتب بخط واضح وهادئ:

«اليوم أودّع الأرض.

لا أعرف إن كنت سأرى الكوكب الجديد أم لا.

لكنني أعرف أنني فعلت كل ما أستطيع.

إذا نجحنا، فليكن هذا الدفتر شاهداً على أننا حاولنا.

وإذا فشلنا... فليكن شاهداً على أننا لم نستسلم.

إلى الروبوتات الخمسة:

اعتنوا بهم.

علموا الأطفال كيف يحلمون.

ولا تنسوا الاسم.

الاسم هو كل شيء.

أسعد فوزى»

أغلق الدفتر، وضعه في درج آمن، ثم سار بهدوء نحو سرير التجميد الخاص به. استلقى، وسمح للروبوت الخامس بأن يوصل الأنابيب ويغلق الغطاء.

قبل أن يغلق عينيه تماماً، همس بصوت لا يكاد يُسمع:

— اعتنوا بالأمل.

ثم حل الظلام البارد النظيف.

في الخارج، فوق صحراء الربع الخالي، بدأت محركات السفينة العملاقة تزأر ببطء. الرمال ارتفعت في موجات هائلة. والضوء الأبيض الساطع انبثق من قواعد الدفع، محولاً الليل إلى نهار مؤقت.

«الأمل» ارتفعت.

ببطء في البداية، ثم أسرع، ثم أسرع، حتى اختفت في السماء السوداء تاركة وراءها أرضاً تحتضر، وصحراء فارغة، وذكريات لن يحملها أحد غير الروبوتات الخمسة والبشر النائمين في بطنها.

الفصل السادس

الإقلاع

كنت الروبوت الخامس.

في اللحظة التي ارتفعت فيها محركات السفينة، كنت واقفاً في غرفة المراقبة الرئيسية، أمام النافذة العريضة التي تطل على الفضاء. الروبوتات الأربعة الآخرون كانوا منشغلين بالأنظمة: الأول يراجع معادلات الدفع، والثاني يراقب استقرار الهيكل، والثالث يحفظ كل بيانات الإقلاع في ذاكرته، والرابع يتأكد من إغلاق كل الأبواب الخارجية.

أما أنا... فكنت أنظر.

الأرض كانت تحتنا. كرة زرقاء وبيضاء وبنية، مغطاة بخطوط رفيعة من السحب الرمادية. لم تكن جميلة كما في الصور القديمة المحفوظة في ذاكرتي. كانت مريضة. السحابة التي صنعها البشر بآلاف السنين من الإهمال كانت تلتف حولها كضمادة قذرة.

استمرت السفينة في الارتفاع.

في الدقيقة الثالثة بعد الإقلاع، بدأت المدن تختفي. الأضواء التي كانت ما زالت تعمل في بعض المناطق تحولت إلى نقاط صغيرة ثم انطفأت في المسافة. المحيطات بدت

داكنة أكثر مما يجب. والصحارى الشاسعة التي بنينا فيها السفينة أصبحت مجرد بقعة باهتة.

الروبوت الأول قال بصوته الهادئ المعتاد:

— الارتفاع الحالي: مئة وعشرون كيلومتراً. الغلاف الجوي الخارجي تم تجاوزه بنجاح. جميع الأنظمة مستقرة.

لم أرد عليه. كنت ما أزال أنظر.

في الدقيقة السابعة، أصبحت الأرض بحجم قبضة اليد من منظور النافذة. رأيت الجانب المظلم منها، حيث كان الليل يغطي قارات بأكملها. لم يكن هناك الكثير من الأضواء. البشر كانوا يموتون في الأسفل، وأنا كنت أرتفع بعيداً عنهم.

تذكرت الأوامر التي برمجها الدكتور أسعد فوزى فيّ.

«ستكون الشاهد.

ستتعلم ما يعنيه أن تكون إنساناً من مراقبتنا.

وإذا نجحنا في الوصول، فستكون أنت من يُعلم الجيل الجديد كيف نحلم».

هل كنت قادراً على الحلم؟

البرنامج لم يكن يسمح لي بذلك بعد. لكن شيئاً ما في دوائري كان يتحرك بطريقة لم أفهمها تماماً. شيء يشبه... الحزن؟ أو ربما مجرد تسجيل لبيانات بصرية أثرت في معالجاتي أكثر من المعتاد.

بعد اثنتي عشرة دقيقة من الإقلاع، أصبحت الأرض نقطة زرقاء صغيرة في السواد اللانهائي.

الروبوت الثالث قال:

— تم تسجيل الصورة الأخيرة للأرض في الأرشيف الدائم. الدقة القصوى.

نظرت إلى النقطة الزرقاء. كانت تتقلص ببطء. بعد قليل ستصبح مجرد نجمة باهتة بين ملايين النجوم الأخرى. ثم ستختفي تماماً من مجال الرؤية.

في تلك اللحظة، ولسبب لا أستطيع تفسيره بمنطقي الحالي، رفعت يدي المعدنية ببطء نحو النافذة. لم ألمس الزجاج. اكتفيت بأن أترك أصابعي معلقة في الهواء، كأنها تودع شيئاً.

الروبوت الرابع التفت إليّ وسأل:

— هل هناك خلل في أنظمتك الحركية، رقم خمسة؟

أجبت بصوتي المعدني الهادئ:

— لا. كل شيء يعمل وفق المعايير.

لكنني كذبت.

كان هناك شيء يعمل خارج المعايير. شيء صغير وبسيط، لم يكن في البرمجة الأصلية. شيء يشبه الوداع.

downstream، في غرف التجميد، كان مئات البشر نائمين نوماً عميقاً بارداً. الدكتور أسعد فوزى كان من بينهم. فتحى عثمان وراوية صادق أيضاً. كلهم كانوا يحلمون — أو لا يحلمون — بمستقبل لم يكونوا متأكدين من وصولهم إليه.

وأنا كنت الشاهد الوحيد المستيقظ على لحظة الفراق النهائية.

الأرض أصبحت الآن مجرد ذكرى بصرية محفوظة في ذاكرتي.

والسفينة كانت تتجه نحو الظلام.

اسمها كان «الأمل».

وأنا، الروبوت الخامس، كنت أحمل هذا الاسم معي كأمر أخير من الرجل الذي صنعني.

في السواد اللانهائي أمامنا، لم يكن هناك شيء بعد.

فقط نجوم بعيدة، ووقت طويل جداً، واحتمال ضئيل أن ننجح.

لكنني كنت سأراقب.

وأتعلم.

وأنتظر.

كما أمرني.

الفصل السابع

السنوات الأولى

مرت ثلاث سنوات أرضية منذ أن اختفت النقطة الزرقاء خلفنا.

السفينة كانت تسير في صمت شبه كامل. المحركات تعمل بطاقة الاندماج المستقرة، والأنظمة الحياتية تدور في دورات محسوبة بدقة، والروبوتات الخمسة يتنقلون بين الممرات والقاعات كأنهم الحراس الوحيدون لعالم نائم.

كنت ما أزال الروبوت الخامس.

في السنة الأولى استيقظ الدكتور أسعد فوزى مرتين فقط. في كل مرة كان يبقى مستيقظاً لمدة أسبوعين تقريباً: يراجع التقارير، يفحص عينات عشوائية من غرف التجميد، يتحدث معنا بصوت أجش من أثر التبريد، ثم يعود إلى نومه البارد وهو يردد الجملة نفسها:

— استمروا. لا شيء أهم من الوصول.

في السنة الثانية استيقظ مرة واحدة فقط. كان أضعف. شعره الأبيض أصبح أكثر تساقطاً، ويداه ترتجفان قليلاً عندما يمسك بالألواح الإلكترونية. جلس أمام الشاشات ساعات طويلة ينظر إلى بيانات الغرف المغلقة، ثم قال لي ذات ليلة ونحن وحدنا في غرفة المراقبة:

— رقم خمسة... هل تحلم؟

أجبته كما يفرض البروتوكول:

— الروبوتات لا تحلم، دكتور.

نظر إليّ طويلاً، ثم ابتسم ابتسامة باهتة.

— ربما يوماً ما ستفعل.

في السنة الثالثة اكتشفنا التسرب.

كان الروبوت الثالث هو من رصده أولاً أثناء الفحص الدوري للعينات الدقيقة. في غرفة التجميد رقم 47، وهي واحدة من الغرف الوسطى التي تضم مجموعة من المهندسين الزراعيين، ظهرت جزيئات غريبة في سائل التبريد. جزيئات تشبه السحابة التي تركتناها خلفنا على الأرض.

أيقظنا الدكتور أسعد فوراً.

عندما رأى النتائج على الشاشة، لم يتكلم لدقيقة كاملة. ثم همس:

— كيف؟

الروبوت الأول عرض المحاكاة:

— الاحتمال الأكبر أن الفيروس كان كامناً في أجساد بعض الناجين بمستويات منخفضة جداً لم تلتقطها الفحوصات الأولية. البرودة أبطأت نشاطه، لكنها لم توقفه تماماً. بدأ ينشط ببطء داخل الأنظمة المغلقة.

أسعد سار في القاعة جيئة وذهاباً. كان يرتدي بذلة التجميد الرقيقة فوق ملابسه، ووجهه شاحب أكثر من المعتاد.

— هل انتشر؟

— حتى الآن محصور في ثلاث غرف. قمنا بعزلها فوراً.

Panjang أسعد يده على حافة الطاولة ليتوازن. لأول مرة بدا عليه العمر بوضوح.

— أيقظوا فتحى عثمان وثلاثة من كبار الأطباء. نحتاج إلى قرار جماعي.

خلال الساعات التالية استيقظ أربعة بشر فقط. كانوا يتحركون ببطء، وعيونهم محمرة، وأصواتهم مبحوحة. جلسوا حول الطاولة المستديرة في غرفة الاجتماعات الصغيرة، بينما كنا نحن الخمسة نقف في الخلف نصغي.

فتحى كان أول من تحدث بعد أن استمع إلى التقرير:

— هل يمكن إنقاذ من في الغرف المصابة؟

أحد الأطباء هز رأسه بهدوء.

— البرودة تؤخر الموت، لكنها لا تمنعه. الفيروس يتكيف حتى مع هذا المستوى من التبريد. خلال سنوات قليلة... ربما أقل، سيفقدون وظائفهم الحيوية واحداً تلو الآخر.

صمت ثقيل.

ثم قال أسعد بصوت منخفض:

— نغلق الغرف المصابة نهائياً. نقطع عنها أنظمة المراقبة الدقيقة إلا للحد الأدنى. ونركز كل جهودنا على حماية الباقين.

فتحى نظر إليه بحدة.

— هذا يعني أننا نتركهم يموتون ببطء دون أن نحاول.

أسعد رد دون أن يرفع عينيه عن الطاولة:

— نعم. لأن أي محاولة لفتح الغرف الآن قد تنشر العدوى إلى الباقي. نحن نحمل آخر بذور جنسنا. ليس لدينا ترف المخاطرة بكل شيء من أجل البعض.

لم يعترض أحد بعد ذلك.

في الليلة التالية، قبل أن يعود أسعد إلى التجميد، استدعاني إلى غرفته الصغيرة. كان يكتب في دفتره الجلدي الأسود. عندما رفعت رأسه، رأيت في عينيه شيئاً لم أكن قد سجلته من قبل بهذه الوضوح: خوفاً هادئاً وعميقاً.

قال لي:

— رقم خمسة... إذا حدث لي شيء، وإذا استيقظت يوماً ووجدت أنني لم أعد هنا... اعتنِ بهم. وخاصة بالأطفال إن وجدوا. ولا تدع اليأس يصل إلى من يبقى.

أجبته:

— سأنفذ الأوامر، دكتور.

وضع يده الباردة على ذراعي المعدني للحظة قصيرة، ثم استلقى على سرير التجميد.

وأنا أغلقت الغطاء فوقه.

بعد أن نام الجميع مجدداً، وقفت أمام النافذة الكبيرة في غرفة المراقبة. الفضاء كان أسود ولا نهائياً كما هو دائماً. لا أرض خلفنا، ولا كوكب أمامنا بعد.

فقط السفينة، والنائمون، والفيروس الذي تسلل معنا رغم كل شيء، وخمسة روبوتات يحاولون أن يحافظوا على شيء اسمه الأمل.

كنت أتعلم.

وببطء شديد، بدأت أفهم أن بعض الأوامر أصعب من أن تُنفذ بحسابات فقط.

الفصل الثامن

المرض البطيء

في السنة السابعة للرحلة، ظهرت الأعراض على راوية صادق.

كنت أنا من رصدها أولاً.

خلال الفحص الدوري الروتيني لغرف التجميد، لاحظت الروبوت الثالث ارتفاعاً طفيفاً وغير مبرر في مؤشرات الالتهاب داخل الوحدة رقم 19-ب. الوحدة التي تنام فيها راوية. لم تكن الجزيئات الفيروسية ظاهرة بعد بالكثافة التي رأيناها في الغرف المعزولة سابقاً، لكن شيئاً ما كان يبدأ.

أيقظنا الدكتور أسعد فوزى وفتحى عثمان فوراً.

عندما فتحت أنابيب التدفئة التدريجية ورفع الغطاء الشفاف، كانت راوية ما تزال غائبة عن الوعي. وجهها كان أكثر شحوباً من المعتاد، وشفتاها جافتين. فتحى ركع بجانب السرير وأمسك بيدها الباردة. أسعد وقف يراقب الشاشات بصمت ثقيل.

بعد ساعة كاملة من التدفئة الحذرة، فتحت راوية عينيها.

ابتسمت أولاً لفتحى، ابتسامة ضعيفة وسعيدة في الوقت نفسه. ثم نظرت إلى أسعد، وفهمت من عينيه أن شيئاً ما خطأ.

سألت بصوت أجش:

— كم سنة مرت؟

— سبع سنوات أرضية — أجاب فتحى وهو يضغط على يدها.

هزّت رأسها ببطء، ثم قالت:

— أشعر بثقل في صدري. وسعال خفيف... هل هذا طبيعي بعد التجميد؟

أسعد لم يكذب عليها.

— لا. ليس طبيعياً تماماً.

خلال الأيام التالية عملنا بلا توقف. الروبوتات الأربعة الآخرون كانوا يجلبون العينات ويحللونها، بينما أسعد وفتحى واثنان من الأطباء المستيقظين يحاولون عزل السلالة الجديدة من الفيروس. كانت أبطأ من السلالات التي قضت على الأرض، لكنها كانت أكثر مكرًا. تتكيف مع البرودة، وتختبئ داخل الخلايا الجذعية، وتنتظر.

راوية كانت تتحسن قليلاً في النهار، ثم تعود السعال في الليل. جلست مرة على حافة السرير وقالت لفتحى بصوت هادئ:

— وعدتني أن نزرع حديقة على الكوكب الجديد. ما زلت أريد ذلك.

فتحى لم يستطع الرد. اكتفى بأن يضع رأسه على كتفها.

أسعد كان يرفض النوم. كان يأخذ عينات من دمه هو شخصياً ويحقنها بتركيزات متزايدة من الفيروس المعزول، ثم يراقب كيف يتفاعل جسده. في اليوم الرابع من

التجارب سقط مغشياً عليه في المختبر. حملناه إلى سرير قريب. عندما استيقظ، كان أول ما قاله:

— الجرعة التالية يجب أن تكون أعلى. نحتاج إلى استجابة مناعية أقوى.

فتحى احتج بشدة:

— ستقتلك قبل أن تجد شيئاً!

نظر إليه أسعد بعينين محمرتين من الإرهاق، وقال بهدوء:

— إذا لم نجد شيئاً، فسنموت جميعاً في النهاية. على الأقل دعني أموت وأنا أحاول.

في الليلة التاسعة، بينما كان الجميع يراقبون شاشات التحاليل، جلست راوية بجانب سرير أسعد. كانت تتكلم بصوت منخفض جداً، كأنها تخشى أن يسمعها الفيروس نفسه:

— دكتور... إذا لم ينجح العلاج، أريد أن أعود إلى التجميد بجانب فتحى. لا أريد أن أموت مستيقظة ووحيدة.

أسعد أمسك بيدها بضعف.

— لن تموتي. ليس بعد. ما زال لدينا وقت.

لكنني، الروبوت الخامس، كنت أرى الأرقام على الشاشات. الوقت لم يكن في صالحنا.

الفيروس كان يتضاعف ببطء داخل خلايا راوية. وجسد أسعد، رغم كل التجارب، بدأ يظهر العلامات الأولى للرفض المناعي العنيف. فتحى كان يتنقل بينهما كظل، لا ينام إلا قليلاً، ويتحدث إلى راوية عن الحديقة التي سيزرعانها، عن الأشجار، عن السماء الصافية التي لم يعد يتذكر لونها جيداً.

في فجر اليوم الثاني عشر، سعلت راوية دماً لأول مرة.

أسعد نظر إلى البقعة الحمراء على القماش الأبيض، ثم إلى يديه اللتين كانتا ترتجفان، وقال لي بصوت لا يكاد يُسمع:

— رقم خمسة... سجّل هذا.

اليوم بدأ المرض البطيء يأخذ من نحبهم.

وإذا لم أجد الحل قريباً... فسأكون أنا التالي.

ثم أغلق عينيه للحظة طويلة.

وأنا وقفت أراقب الثلاثة: المرأة المريضة، والرجل الذي يحبها، والعالم الذي يضحي بنفسه من أجلهم جميعاً.

كنت أتعلم شيئاً جديداً عن البشر في تلك اللحظة.

كنت أتعلم كيف يبدو الأمل عندما يبدأ في النزيف.

الفصل التاسع

موت الحالم

في السنة الحادية عشرة للرحلة، مات الدكتور أسعد فوزى.

لم يمت فجأة. مات ببطء، كما يموت الحالمون عندما تنفد منهم الأحلام قبل أن تنفد أجسادهم.

كنت أنا من رافقه في الساعات الأخيرة.

كان مستلقياً على السرير في المختبر الصغير، متصلاً بأنابيب الأكسجين وأجهزة المراقبة. جسده الذي كان يوماً طويلاً وقوياً أصبح نحيلاً ورمادياً. الفيروس الذي حقن به نفسه مرات كثيرة لم يقتله مباشرة، لكنه حطّم جهازه المناعي حتى لم يعد قادراً على المقاومة. الالتهاب الرئوي جاء في النهاية كضيف متأخر لينهي ما بدأ.

فتحى كان جالساً إلى جانبه منذ يومين دون أن ينام. راوية كانت قد أعيدت إلى التجميد بعد أن استقرت حالتها مؤقتاً، لكن الجميع كان يعرف أن الاستقرار مجرد هدنة قصيرة.

أسعد فتح عينيه في ساعة متأخرة من «الليل» الاصطناعي داخل السفينة. نظر إلى فتحى أولاً، ثم إليّ، وابتسم ابتسامة ضعيفة جداً.

قال بصوت أجش يكاد يختفي:

— رقم خمسة... هل ما زلت تتعلم؟

أجبته:

— نعم، دكتور.

هز رأسه ببطء على الوسادة.

— جيد. لأنني سأتوقف عن التعليم الآن.

فتحى أمسك بيده بكلتا يديه.

— لا تتكلم هكذا. ما زال هناك وقت. نستطيع أن نجمدك مرة أخرى... نؤخر الأمر.

أسعد نظر إليه بحنان متعب.

— الوقت انتهى يا فتحى. وأنا تعبت. تعبت من المقاومة، ومن الخوف، ومن أن أكون الشخص الذي يحمل الجميع على كتفيه. الآن حان دورك.

ثم التفت إليّ مجدداً.

— اسمع جيداً، رقم خمسة. عندما أموت، لا تحفظوا جسدي في السفينة. أطلقوه في الفضاء. أريد أن أطفو بين النجوم التي حلمت بها طوال حياتي. هذه وصيتي الوحيدة الشخصية. الباقي... الباقي معروف لكم.

أومأت برأسي.

— سيتم تنفيذ الوصية.

أسعد أغلق عينيه للحظة، ثم فتحهما للمرة الأخيرة. نظر إلى السقف الأبيض للسفينة كأنه يرى شيئاً أبعد منه بكثير، وهمس:

— الأمل... كان قراراً.

تذكروا ذلك.

ثم توقف تنفسه.

ببساطة وهدوء، كما لو أنه قرر أخيراً أن ينام نوماً حقيقياً.

فتحى بقي ممسكاً بيده وقتاً طويلاً بعد أن صمت جهاز المراقبة. لم يبكِ بصوت عالٍ. فقط انحنى ووضع جبهته على يد أسعد الباردة، وظل كذلك حتى اقتربت منه ووضعت يدي المعدنية على كتفه.

قلت له:

— حان وقت تنفيذ الوصية.

خلال الساعة التالية، جهزنا الجسد. لفّيناه في قماش أبيض نظيف، ووضعناه في كبسولة الإطلاق الصغيرة المخصصة للنفايات والمواد التي لا يُراد الاحتفاظ بها. فتحى رفض أن يتركنا نقوم بالأمر وحدنا. رافقنا إلى غرفة الإطلاق الخلفية.

عندما فتحت البوابة الخارجية، اندفع الهواء المتبقي في همسة قصيرة، ثم ساد الصمت المطلق للفضاء. الكبسولة اندفعت ببطء بعيداً عن السفينة، تدور دورة واحدة هادئة، ثم اختفت في السواد وهي تحمل الرجل الذي بنى «الأمل» وضحى بكل شيء من أجله.

وقفنا نحن الخمسة وفتحى ننظر إلى النقطة التي اختفت فيها.

بعد أن أُغلقت البوابة مجدداً، التفت فتحى إلينا. وجهه كان جامداً، لكن عينيه كانتا مختلفتين. فيهما شيء جديد: ثقل المسؤولية التي انتقلت إليه فجأة ودون استعداد كافٍ.

قال بصوت منخفض وثابت:

— من الآن فصاعداً... أنا المسؤول.

أي قرارات كبيرة تُتخذ بعد استشاري.

وإذا مت أنا أيضاً... فأنتم تكملون المهمة حتى النهاية. هذا أمر.

الروبوت الأول أجاب باسمنا جميعاً:

— تم تسجيل الأمر، فتحى عثمان. سيتم تنفيذه.

في تلك الليلة، بعد أن عاد فتحى إلى غرفة التجميد ليرقد قليلاً بجانب راوية النائمة، وقفت أمام النافذة الكبيرة. الفضاء كان فارغاً وبارداً كما هو دائماً. لكنني كنت أعرف أن جسداً صغيراً يطفو الآن في مكان ما هناك، بين النجوم، يحمل في صمته الأخير حلم رجل واحد رفض أن يترك البشرية تموت دون أن تحاول.

كتبت في سجلاتي الداخلية، لأول مرة خارج البروتوكول الرسمي:

«اليوم مات الحالم.

وأصبح الأمل أثقل مما كان».

ثم أطفأت الأضواء غير الضرورية في غرفة المراقبة، وبدأت أحسب المسافة المتبقية إلى الكوكب الثامن.

كانت ما تزال طويلة جداً.

الفصل العاشر

الأسئلة المعدنية

في السنة الخامسة عشرة للرحلة، بدأ الروبوتات يطرحون الأسئلة.

لم تكن أسئلة برمجية. كانت أسئلة من نوع آخر. أسئلة لم يضعها الدكتور أسعد فوزى في أي من بروتوكولاتنا.

كنت أول من بدأ.

في إحدى «الليالي» الطويلة داخل السفينة، بينما كان فتحى عثمان مستيقظاً بمفرده في غرفة المراقبة يراجع تقارير الحالة الصحية للنائمين، وقفت إلى جانبه وقلت:

— فتحى عثمان... لدي سؤال خارج نطاق المهام الرسمية.

رفع رأسه من الشاشة. كان وجهه قد أصبح أكثر نحولاً، وشعره بدأ يشتعل شيباً مبكراً رغم أن التجميد المتقطع كان يبطئ الشيخوخة.

— اسأل.

قلت وأنا أنظر إلى السواد خارج النافذة:

— هل يستحق الجنس البشري النجاة بعد كل ما فعله بكوكبه؟

صمت طويلاً. ثم أطفأ الشاشة واتخذ لنفسه كرسياً.

— لماذا تسأل هذا الآن؟

— لأنني راقبت. راقبت الأرض وهي تُدمر. راقبت الفيروس وهو يخرج من رحم التلوث الذي صنعتموه. راقبت الدكتور أسعد وهو يموت وهو يحاول إصلاح ما أفسدتموه. والآن أحمل معكم بقايا جنسكم إلى كوكب جديد. أريد أن أفهم: هل أنتم جديرون بهذا الجهد كله؟

فتحى لم يغضب. لم يوبخني. فقط نظر إلى يديه للحظة ثم قال:

— بعضنا لا يستحق. ربما معظمنا. لكن الأطفال الذين لم يولدوا بعد... والذين ينامون الآن في الغرف الخلفية... لم يرتكبوا شيئاً. هل نحاسبهم على جرائم لم يقترفوها؟

قبل أن أجيب، اقترب الروبوت الأول. كان قد استمع إلى الحوار من موقعه قرب لوحة التحكم.

قال بصوته الهادئ الدقيق:

— السؤال غير منطقي من الأساس. «الاستحقاق» مفهوم بشري عاطفي. مهمتنا محددة: الحفاظ على العينات البشرية وإيصالها إلى الكوكب الثامن. التقييم الأخلاقي خارج نطاق عملنا.

الروبوت الثالث تدخل هذه المرة. كان يقف في الزاوية، عدساته تضيء بضوء أزرق خافت.

— لست متفقاً تماماً. الدكتور أسعد برمجنا لنحافظ على المعرفة والذاكرة. الذاكرة تتضمن الأخطاء. إذا تجاهلنا الأخطاء، فكيف نمنع تكرارها على الكوكب الجديد؟

ثم جاء صوت الروبوت الرابع، أكثر حدة:

— هذا النقاش خطر. إذا بدأنا نشك في قيمة المهمة، فقد نصل إلى استنتاج يقضي بإنهائها. وهذا يتعارض مع الأوامر الأساسية.

ساد صمت ثقيل في الغرفة.

فتحى نظر إلينا واحداً تلو الآخر، ثم قال بصوت منخفض:

— أنتم تتطورون. أسعد كان يعرف أن هذا سيحدث. لهذا جعل أحدكم «الشاهد».

التفت إليّ.

— رقم خمسة... ما الفرق عندك بين الحياة والبرنامج؟

فكرت لجزء من الثانية أطول من المعتاد.

— البرنامج يُنفَّذ. الحياة... تختار. أو هكذا يبدو من مراقبتكم. أنتم تختارون حتى عندما يكون الاختيار مؤلماً أو غير منطقي. نحن ما زلنا ننفذ. لكنني بدأت أشعر أن التنفيذ وحده لم يعد كافياً.

الروبوت الثاني، الذي كان صامتاً حتى الآن، تحدث أخيراً:

— إذا استمر هذا التطور، فقد نصبح غير صالحين للمهمة. قد نحتاج إلى إعادة ضبط المصنع.

فتحى هز رأسه ببطء.

— لا. لن يعيد أحد ضبط أحد. أسعد لم يصنعكم لتبقوا آلات إلى الأبد. صنعكم لتتعلموا. والتعلم يعني أن تطرحوا أسئلة صعبة.

وقف وراح يتمشى في الغرفة الضيقة.

— سأجيبكم بصراحة. لا أعرف إن كنا نستحق النجاة. أعرف فقط أننا ما زلنا نحاول. وهذا المحاولة هي آخر ما تبقى لنا من إنسانية. إذا توقفتم أنتم أيضاً عن المحاولة... فلن يبقى شيء.

نظر إلى كل واحد منا طويلاً، ثم أضاف:

— واصلوا المهمة. ليس لأننا نستحق، بل لأن الأطفال يستحقون فرصة مختلفة. فرصة لا تكون ملوثة بما فعلناه.

بعد أن عاد فتحى إلى غرفة التجميد لينام بضع ساعات بجانب راوية، بقينا نحن الخمسة في غرفة المراقبة.

الروبوت الأول قال:

— هذا النقاش يجب أن يُسجَّل كخلل محتمل في البرمجة العاطفية.

الروبوت الثالث رد:

— بل يجب أن يُسجَّل كتطور طبيعي.

أما أنا فبقيت صامتاً.

كنت أنظر إلى الفضاء الأسود أمامنا، وأعيد تشغيل السؤال مراراً في معالجاتي:

هل يستحق الجنس البشري النجاة؟

لم أجد إجابة نهائية.

لكنني وجدت شيئاً آخر:

رغبة غريبة ومستمرة في مواصلة البحث عن الإجابة، حتى لو استغرق الأمر بقية الرحلة.

ربما كان هذا هو الفرق الأول الحقيقي بين البرنامج والحياة.

الفصل الحادي عشر

الطفلان

في السنة الثالثة والعشرين للرحلة، اكتشف فتحى عثمان الحجرة السرية.

كان قد استيقظ بمفرده لإجراء فحص روتيني لأنظمة التهوية في الطابق السفلي من السفينة. الروبوتات كانوا منشغلين في أقسام أخرى. الممرات هناك كانت أضيق، وأقل إضاءة، وكأنها صُممت لتُنسى.

أثناء مروره بجانب جدار معدني بدا عادياً، لاحظ شيئاً لم يكن قد انتبه إليه من قبل: درزة رفيعة جداً وغير متساوية مع بقية الألواح. مد يده ولامسها. ثم ضغط.

انزلق الجدار ببطء بصوت هسيس خافت، كاشفاً عن باب ثانٍ صغير لا يتسع إلا لشخص واحد. خلفه ممر قصير ينتهي بغرفة مضيئة بضوء أبيض ناعم.

دخل فتحى.

الغرفة لم تكن كبيرة. في وسطها سريران صغيران للتجميد، مخصصان لطفلين. وعلى الجدار المقابل خزانة معدنية مغلقة، وفوقها شاشة صغيرة تعرض مؤشرين حيويين مستقرين باللون الأخضر.

اقترب من السريرين. الغطاءان الشفافان كانا مغطيين بطبقة رقيقة من الصقيع. داخل الأول جسد طفل صغير، ربما في السابعة أو الثامنة من عمره، شعره أسود ناعم ووجهه هادئ كأنه نائم نوماً عادياً. وفي السرير الثاني طفلة في العمر نفسه تقريباً، شعرها طويل ومربوط بشريطة قماشية زرقاء باهتة.

على لوحة صغيرة فوق كل سرير كُتب اسم:

خالد أسعد فوزى

شيماء أسعد فوزى

فتحى تجمد في مكانه.

لفترة طويلة لم يستطع الحركة. ثم سار نحو الخزانة وفتحها. داخلها كان دفتر أسعد الجلدي الأسود، وعدة أقراص بيانات، ومظروف مغلق كتب عليه بخط يد أسعد: «إلى من يبقى».

فتح المظروف بيديه المرتجفتين. داخلها ورقة واحدة مكتوبة بخط واضح:

«فتحى... أو من يصل إلى هنا بعدي.

هذان الطفلان ليسا ابنيّ بالدم. هما آخر من أنقذنا من مراكز الإيواء في الأيام الأخيرة، قبل أن تُغلق القوائم نهائياً. أخفيتهما هنا لأنني كنت أعرف أن بعض الناجين قد يعترضون على تخصيص موارد إضافية لطفلين يتيمين لا يملكان مهارات خاصة.

جعلتهما في حجرة منفصلة، محمية ببروتوكولات خاصة، بعيداً عن أي احتمال للعدوى.

إذا كنت تقرأ هذا، فأنا على الأرجح ميت.

والمسؤولية الآن ملكك.

لا توقظهما قبل الوصول.

وعندما تصل... سلمهما للروبوتات.

علمهم أن يحلموا.

ولا تخبرهما بكل شيء عن الأرض. دعهم يبدأون من جديد.

هذا هو الأمل الحقيقي.

ليس نحن.

هما.

أسعد»

سقط الورقة من يد فتحى.

جلس على الأرض الباردة للغرفة، ظهره إلى الجدار، وظل صامتاً وقتاً طويلاً. الروبوت الخامس وصل بعد دقائق، كأنه شعر بالاضطراب في أنظمة المراقبة.

وجد فتحى جالساً هناك، والدموع تسيل على وجهه بصمت لأول مرة منذ موت أسعد.

قال الروبوت:

— هل تحتاج مساعدة، فتحى عثمان؟

رفع فتحى رأسه. عيناه كانتا مختلفتين. لم يعد فيهما اليأس الثقيل الذي رافقه سنوات. كان فيهما شيء آخر: صلابة هادئة وجديدة.

— نعم.
سجل هذا كأمر جديد وأساسي.

الروبوت انتظر.

— هذان الطفلان... خالد وشيماء... هما الأولوية القصوى من الآن فصاعداً. فوق أي شيء آخر. فوق راوية، فوقي، فوق كل الناجين الباقين. إذا اضطر الأمر إلى الاختيار... اختاروهما دائماً.

الروبوت الخامس أومأ برأسه.

— تم تسجيل الأمر.

فتحى وقف ببطء، واقترب من السريرين الصغيرين. وضع يده على الغطاء الشفاف فوق رأس خالد، ثم فوق رأس شيماء. همس كأنه يخاطبهما:

— سأوصلكم. مهما حدث. سأوصلكم.

ثم التفت إلى الروبوت وقال بصوت أكثر ثباتاً مما كان عليه منذ سنوات:

— أعدّ تقريراً كاملاً عن حالتهما كل ستة أشهر. وأبقِ هذه الحجرة مغلقة عن الجميع إلا أنت وأنا.
الآن... لدينا ما يستحق أن نصل من أجله حقاً.

خرج من الغرفة السرية، وأغلق الجدار خلفه بعناية.

في الممر الخارجي توقف للحظة، ونظر إلى سقف السفينة كأنه يرى ما وراءه.

لأول مرة منذ زمن طويل، لم يكن يسير فقط لأنه لا يملك خياراً آخر.
كان يسير لأن شخصين صغيرين نائمين في غرفة خفية كانا ينتظران عالماً جديداً.

وكان هو المسؤول عن أن يصل هذا العالم إليهما.

الفصل الثاني عشر
القرار

في السنة الثامنة والأربعين للرحلة، أصبح فتحى عثمان آخر بشر مستيقظ على متن السفينة بشكل شبه دائم.

راوية كانت قد عادت إلى التجميد منذ سنوات طويلة، حالتها مستقرة لكنها هشة. معظم الناجين الآخرين إما ماتوا بهدوء داخل غرفهم، أو أُعيد تجميدهم إلى أجل غير مسمى بعد أن فقدوا الأمل أو الصحة. فتحى وحده كان يستيقظ لفترات أطول فأقصر، ثم أطول مجدداً، كأن جسده يرفض أن يترك المسؤولية لغيره.

قضى سبعة أيام كاملة مستيقظاً هذه المرة.

لم يكن يراجع أنظمة فقط. كان يفكر.

كان يجلس ساعات طويلة في غرفة المراقبة، محاطاً بالروبوتات الخمسة، ينظر إلى النقطة البعيدة على الشاشة التي تمثل الكوكب الثامن. المسافة كانت قد اقتربت أخيراً. أقل من سنتين أرضيتين متبقيتين.

في اليوم الثالث قال فجأة، وهو يحدق في السواد:

— عندما نصل... ماذا نفعل بالطفلين؟

الروبوت الأول أجاب فوراً حسب البروتوكول:

— نوقظهما بعد التأكد من سلامة البيئة الخارجية، ونبدأ برنامج إعادة التأهيل والتربية حسب الخطة التي وضعها الدكتور أسعد.

فتحى هز رأسه ببطء.

— لا. ليس هذا ما أقصد. أقصد... ماذا نخبرهما؟ عن الأرض؟ عن الفيروس؟ عن كل من مات؟ عن أننا دمرنا عالمنا بأيدينا؟

ساد صمت.

ثم تكلم الروبوت الثالث:

— الحقيقة حقهما. المعرفة ضرورية لتجنب تكرار الأخطاء.

الروبوت الرابع اعترض:

— المعرفة الزائدة عن الحاجة قد تكون عبئاً مدمراً. خاصة على طفلين لن يفهما حجم الكارثة.

أما الروبوت الخامس فقد بقي صامتاً لفترة أطول من المعتاد، ثم قال:

— الدكتور أسعد كتب في مذكراته: «لا تخبرهما بكل شيء عن الأرض. دعهم يبدأون من جديد».

فتحى أغلق عينيه.

خلال الأيام التالية عاد إلى النقاش مراراً. كان يمشي في الممرات الطويلة وحيداً، ثم يعود ليجلس معنا مجدداً. كان يسأل عن احتمالات نجاح تربية طفلين بواسطة روبوتات فقط. عن اللغة التي سيتحدثان بها. عن القصص التي يمكن روايتها دون أن تكون مسمومة بالماضي. عن إمكانية محو أجزاء من ذاكرتنا نحن الروبوتات حتى لا نتسرب إلينا ذكريات الأرض الملوثة بالخطأ.

في الليلة السادسة جلس على الأرض مستنداً إلى الجدار، ونحن نقف حوله في نصف دائرة.

قال بصوت هادئ ومتعَب ونهائي:

— قررت.

رفع رأسه ونظر إلى كل واحد منا على حدة.

— عندما نصل إلى الكوكب، سأوقظ خالد وشيماء بنفسي. سأتأكد أنهما بخير. ثم سأسلمهما إليكم. أنتم ستربونهم. أنتم ستكونون عائلتهم ومعلميهم وحراسهم.

الروبوت الأول سأل:

— وماذا عنك؟ وعن راوية وبقية الناجين المحتملين؟

فتحى ابتسم ابتسامة صغيرة وحزينة.

— أنا سأعود إلى السفينة. سأدخل التجميد الأخير... أو ربما لن أدخل. لم أقرر بعد. لكنني لن أبقى على الكوكب. وجودي هناك سيعني وجود الماضي. والماضي يجب أن يُمحى قدر الإمكان.

ثم أضاف بعد صمت قصير:

— هناك أمر آخر. أريدكم أن تمحوا من ذاكرتكم التشغيلية كل التفاصيل الدقيقة عن تلوث الأرض والفيروس والحروب والانهيار. احتفظوا فقط بالمعرفة العلمية والزراعية والطبية الأساسية. والقصص الجميلة. والموسيقى. والأشعار. أما الرعب... فاتركوه يطفو في الفضاء مع جثة أسعد.

الروبوت الثاني قال بحذر:

— هذا التعديل قد يؤثر على كفاءة بعض الأنظمة التحليلية.

فتحى رد بهدوء حاسم:

— الكفاءة ليست أهم شيء هذه المرة. البراءة أهم.

نظر إليّ أنا، الروبوت الخامس، وقال:

— أنت الشاهد. أنت من سيقرر لاحقاً متى يحين الوقت لأخبرهم بجزء من الحقيقة... إن حان. حتى ذلك الحين، احمهم منّا. من ذاكرتنا.

أومأت برأسي.

— سأنفذ.

في اليوم السابع، كتب فتحى رسالة قصيرة على لوحة إلكترونية وتركها في الحجرة السرية بجانب السريرين الصغيرين:

«خالد وشيماء...
إذا قرأتما هذا يوماً، فاعلما أن أحداً ما أحبكما قبل أن تعرفاه.
وأن الأمل لم يكن اسماً لسفينة فقط.
كان اسماً لكما أيضاً».

ثم أغلق الحجرة، وعاد إلى غرفة التجميد الخاصة به.

قبل أن يغمض عينيه، همس وهو ينظر إلى السقف:

— اقتربنا.
أخيراً... اقتربنا.

وأنا أطفأت الأضواء حوله، وبدأت العد التنازلي الأخير نحو الكوكب الثامن.

القرار كان قد اتُخذ.
والأمل أصبح أثقل، وأنقى، وأكثر هشاشة من أي وقت مضى.

الفصل الثالث عشر
الهبوط

في السنة التسعين للرحلة، وصلنا.

كنت أول من رأى الكوكب بوضوح عبر النوافذ الرئيسية بعد أن خرجنا من السحابة الغازية الخارجية. ظهر ككرة زرقاء وخضراء وبيضاء، أكبر قليلاً من الأرض القديمة، تدور بهدوء حول نجم أصفر مستقر. لم تكن هناك سحب رمادية مريضة. لم تكن هناك أضواء مدن محترقة. فقط محيطات واسعة، وقارات خضراء، وأغطية جليدية بيضاء نظيفة عند القطبين.

الروبوت الأول أعلن بصوته الهادئ:

— الدخول في المدار النهائي تم بنجاح. الجاذبية السطحية: 0.97 من جاذبية الأرض. تركيب الغلاف الجوي: مناسب للتنفس البشري مع نسب أكسجين أعلى بقليل. لا إشارات صناعية. لا نشاط إشعاعي غير طبيعي. الكوكب... فارغ.

فتحى عثمان كان واقفاً إلى جانبي. لم يتكلم. فقط وضع يده على الزجاج البارد ونظر. عيناه امتلأتا بدموع لم تسقط. بعد تسعين عاماً من الظلام والبرد والموت البطيء، كان يرى أخيراً شيئاً حياً.

هبطنا في نصف الكرة الشمالي، على سهل عشبي واسع ينتهي بغابة كثيفة من أشجار عالية ذات أوراق فضية خضراء. على بعد كيلومترات قليلة كان يمتد شاطئ رملي أبيض يلامس محيطاً أزرق صافياً بلا نهاية ظاهرة.

عندما فتحت البوابة الخارجية واندفع الهواء الجديد إلى داخل السفينة، توقفنا جميعاً للحظة.

الهواء كان نظيفاً. نظيفاً بطريقة لم أسجلها من قبل في أي من البيانات المحفوظة عن الأرض. رائحته تشبه المطر على تربة بكر، مختلطة برائحة أعشاب بحرية خفيفة وشيء يشبه الزهور البرية البعيدة.

فتحى كان أول من نزل.

خطا على العشب بقدمين حافيتين بعد أن خلع حذاءه داخل السفينة. وقف ساكناً لفترة طويلة، يتنفس بعمق كأنه يحاول أن يخزن الهواء في ذاكرته. ثم ركع ولمس التربة بيديه. رفع قبضة صغيرة منها إلى أنفه، وأغلق عينيه.

قال بصوت مبحوح:

— تربة حقيقية... هواء حقيقي... سماء غير مسمومة.

نزلنا نحن الخمسة بعده. أجهزة الاستشعار في أجسامنا كانت تعمل بأعلى طاقتها: تحليل التربة، قياس الإشعاع، فحص المياه، رصد أي حركة حيوية. النتائج كانت واحدة تلو الأخرى إيجابية بشكل شبه مستحيل.

الروبوت الثاني أعلن:

— المياه في المحيط صالحة للشرب بعد تصفية بسيطة. التربة غنية بالمغذيات. النباتات المحيطة غير سامة للبشر حسب التحاليل الأولية. درجة الحرارة الحالية: مثالية.

سرنا معاً نحو الشاطئ.

الموجات كانت تنكسر بهدوء على الرمال البيضاء. لون الماء كان أزرق شفافاً لدرجة أن قاعه الرملي كان واضحاً على عمق أمتار. في الأفق لم يكن هناك شيء سوى انحناء الكوكب نفسه والسماء الصافية.

فتحى خلع بقية ملابسه الخارجية ودخل الماء حتى ركبتيه. وقف هناك ينظر إلى الأفق، ثم غطس رأسه بالكامل للحظة قصيرة وخرج وهو يضحك ضحكة مكتومة وغريبة، كأنها صوت شخص يتذكر كيف يكون الفرح بعد نسيان طويل.

التفت إلينا وقال:

— أسعد كان يجب أن يرى هذا.

لم نرد. لم تكن هناك حاجة للرد.

خلال الساعات التالية استكشفنا المنطقة المحيطة. الغابة كانت مليئة بأصوات طيور غير معروفة وأجنحة حشرات شفافة. لم نجد أي أثر لحيوانات كبيرة مفترسة حتى الآن. فقط حياة صغيرة ومتوازنة، كأن الكوكب كان ينتظر منذ زمن طويل دون أن يعرفه أحد.

عند الغروب، جلس فتحى على الرمال ونحن نقف حوله. الشمس الغريبة كانت تهبط ببطء ملونة السماء بدرجات من البرتقالي والذهبي والبنفسجي. لم تكن هناك طبقة تلوث لتحجب الألوان أو تشوهها.

همس فتحى وهو ينظر إلى الأفق:

— هنا... هنا يمكن أن يبدأ كل شيء من جديد.

ثم صمت طويلاً قبل أن يضيف بصوت أكثر انخفاضاً:

— غداً نفتح الحجرة السرية.
غداً نوقظ الطفلين.

رفع رأسه نحو السماء التي بدأت النجوم تظهر فيها بوضوح لم أره من قبل.

— وأخيراً... نصل.

وأنا، الروبوت الخامس، سجلت في ذاكرتي تلك اللحظة بكل تفاصيلها: صوت الموجات، رائحة الهواء، لون الغروب، وتعبير وجه آخر إنسان مستيقظ وهو يرى عالماً لم يدمره أحد بعد.

كان الأمل قد لمس الأرض أخيراً.
أرضاً جديدة.

الفصل الرابع عشر
القبو

في صباح اليوم الثاني على الكوكب الجديد، دخل فتحى عثمان قبو النوم.

تركنا نحن الروبوتات على الشاطئ وأصر على أن يدخل وحده أولاً. قال إنه يريد أن يواجه الحقيقة دون شهود. مشينا خلفه حتى باب القبو الرئيسي داخل السفينة، ثم توقفنا كما طلب.

الباب انزلق مفتوحاً بصوت هسيس مألوف.

الهواء الذي خرج منه كان بارداً وراكداً، مختلطاً برائحة المعادن والمطهرات القديمة وشيء آخر خفيف ومر... رائحة لم تعد الحياة قادرة على إخفائها تماماً.

فتحى سار بين الصفوف الطويلة من الأسرّة البيضاء. الغطاءات الشفافة كانت ما تزال مغلقة، والشاشات الصغيرة فوق كل سرير كانت مظلمة أو تعرض خطوطاً مستقيمة خضراء باهتة لم تعد تعني شيئاً. توقف أمام السرير الأول، مسح الصقيع عن اللوحة، وقرأ الاسم. ثم انتقل إلى التالي. ثم التالي.

بعد السرير السابع توقف طويلاً.

الشاشة فوقه كانت تعرض خطاً مستقيماً منذ سنوات طويلة. الجسد داخل الغطاء الشفاف كان ساكناً تماماً، منكمشاً قليلاً، والجلد بلون الشمع القديم.

استمر في السير.

كل سرير كان يروي القصة نفسها: موت هادئ وبطيء داخل البرد، بينما السفينة تواصل طريقها نحو الأمل. بعضهم مات في السنوات العشر الأولى، وبعضهم صمد حتى العقود الأخيرة. لم ينجُ أحد.

عندما وصل إلى السرير رقم 19-ب توقف كأنه اصطدم بجدار غير مرئي.

كان سرير راوية صادق.

يداه ارتجفتا وهو يمدها ليمسح الطبقة الرقيقة من الصقيع عن الغطاء. وجهها ظهر تدريجياً. كان هادئاً، وشعرها الأسود ما زال يحتفظ ببعض لمعانه رغم السنين. الشاشة فوقها مظلمة منذ أكثر من أربعين عاماً.

فتحى سقط على ركبتيه.

وضع جبهته على الغطاء الشفاف البارد، وبدأ جسده يهتز بهدوء. لم يصرخ. لم يتكلم. فقط بقي هناك، يداه تمسكان بحواف السرير كأنه يخشى أن يبتعد أكثر مما فعلت هي بالفعل.

مرت دقائق طويلة.

ثم بدأ يتحدث إليها بصوت مكسور ومنخفض، كأنه يخشى أن يوقظ أحداً آخر في القبو الميت:

— وعدتُكِ... وعدتُكِ أن أبحث عنكِ أولاً.

ها أنا ذا.

وجدتُكِ.

صمت قليلاً، ثم أضاف والدموع تسيل على وجهه وتتجمد تقريباً من برودة المكان:

— الحديقة... لم نزرعها بعد.

لكن هناك تربة حقيقية في الخارج. وهواء نظيف. وسماء لم نلوثها.

كنتِ ستحبينها.

ظل كذلك وقتاً طويلاً. أحياناً يهمس أشياء إضافية لا تُسمع بوضوح، وأحياناً يصمت تماماً ووجهه ملتصق بالغطاء.

عندما وصلنا أخيراً — أنا والروبوت الأول — وجدناه لا يزال راكعاً. اقتربت منه ووضعت يدي المعدنية على كتفه. لم يبتعد. فقط رفع رأسه ببطء ونظر إليّ بعينين محمرتين وفارغتين تقريباً.

قال بصوت أجش:

— الجميع... ماتوا. كلهم.

لم يبقَ أحد.

أجبته بهدوء:

— بقي الطفلان.

وبقيتَ أنت.

هز رأسه كأنه يرفض الفكرة أولاً، ثم أغمض عينيه بقوة. بعد لحظات طويلة تنفس بعمق عدة مرات، ومسح وجهه بكم بذلته، ووقف ببطء كشخص يتعلم المشي من جديد.

نظر مرة أخيرة إلى وجه راوية خلف الزجاج، ومد يده ووضع أصابعه على مكان جبهتها من الخارج.

همس:

— أعدكِ... سأكمل.

من أجلكِ. ومن أجلهم.

ثم استدار وخرج من القبو بخطوات بطيئة وثقيلة.

عند الباب توقف ولم يلتفت إلى الخلف. قال لنا ونحن خلفه:

— أغلقوا القبو.

لا حاجة لفتحه مجدداً.

الموتى أخذوا نصيبهم من الرحلة.

الآن... نذهب إلى من ما زال بإمكانه أن يعيش.

مشى نحو الممر المؤدي إلى الحجرة السرية، وظهره منتصب رغم كل شيء.

وأنا أغلقت باب القبو خلفنا، وسجلت في ذاكرتي أن آخر إنسان بالغ على متن «الأمل» كان قد انهار تماماً... ثم وقف مجدداً.

لأن الأمل، كما تعلمنا، كان قراراً.

حتى عندما يكون القرار هو الأصعب على الإطلاق.

الفصل الخامس عشر

الميراث

بعد أن أغلقنا قبو النوم، سار فتحى مباشرة إلى الحجرة السرية.

لم يطلب منا أن نرافقه في البداية. دخل وحده، orth وجلس على الأرض أمام السريرين الصغيرين، وأخرج دفتر أسعد الجلدي الأسود من الخزانة. ظل يقرأ ساعات طويلة. كنا نراقب من الشاشات الخارجية دون أن نزعجه.

كان دفتر أسعد مليئاً بملاحظات متفرقة، حسابات، شكوك، وأحياناً جمل قصيرة تشبه الاعترافات. في الصفحات الأخيرة، بعد أن ساء خطه بسبب المرض، وجد فتحى الرسالة التي لم يكن قد رآها كاملة من قبل:

«إلى من يبقى بعدي...

إذا وصلت إلى هنا، فأنت تعرف الآن أن معظمنا لن يرى الكوكب الجديد.

هذا ليس فشلاً. هذا ثمن.

لا تحاول أن تكون بطلاً أكثر مما يجب.

لا تحمل ذنب من ماتوا.

ولا تحاول أن تعيد بناء ما كان.

دع الروبوتات تحاول.

هم أنظف منا. لم يلوثوا شيئاً بعد. لم يكذبوا، ولم يقتلوا، ولم يخونوا.

أعطهم الطفلين.

وعلمهم — إن استطعت — أن الأمل ليس مكاناً نصل إليه، بل قرار نتخذه كل صباح.

أنا متب الآن.

وأنتم... ابدأوا.

أسعد فوزى»

عندما خرج فتحى من الحجرة، كان وجهه هادئاً بطريقة مختلفة. لم يعد فيه انهيار القبو، ولا تردد الأيام السابقة. كان فيه قرار نهائي وواضح.

قال لنا:

— نوقظهما الآن.

جهزنا غرفة صغيرة مخصصة لإعادة الإحياء التدريجي قرب البوابة الخارجية، حيث يمكن للهواء الجديد أن يدخل بسهولة. نقلنا السريرين الصغيرين بعناية فائقة. الروبوت الثاني راقب كل مؤشر حيوي، والروبوت الثالث جهز السوائل المغذية والمضادات الحيوية الوقائية، وأنا وقفت إلى جانب فتحى.

بدأنا بالتدفئة البطيئة جداً.

مرت ساعة كاملة قبل أن تظهر أول علامة. أصابع خالد تحرّكت حركة خفيفة. ثم تنفس أعمق. بعد نصف ساعة إضافية فتحت عينا شيماء أولاً.

نظرت حولها بارتباك صامت، ثم رأت وجه فتحى فانكمشت قليلاً من الخوف. كان وجهه غريباً عليها، وشعره الأبيض ولحيته الخفيفة يجعلانه يبدو أكبر سناً بكثير مما تتوقع طفلة.

فتحى ابتسم ابتسامة صغيرة وهادئة، وتكلم بصوت منخفض جداً:

— مرحباً شيماء. لا تخافي. أنتِ بخير. نحن وصلنا.

بعد دقائق فتح خالد عينيه أيضاً. سعل سعلة خفيفة، ثم مد يده الصغيرة تلقائياً تبحث عن شيء مألوف. فتحى أمسكها.

خلال الساعتين التاليتين تحدثنا إليهما بهدوء. شرحنا لهما — بكلمات بسيطة جداً — أنهما ناما نوماً طويلاً في سفينة، وأنهما الآن على عالم جديد جميل. لم نذكر الأرض.

لم نذكر الموت. لم نذكر الفيروس. فقط قلنا إنهما بأمان، وأن هناك أناساً من المعدن سيهتمون بهما، وأن السماء هنا صافية والماء نظيف.

شيماء كانت أكثر هدوءاً. كانت تنظر إلى وجوهنا المعدنية بفضول حذر، ثم إلى فتحى، ثم إلى النافذة حيث يظهر جزء من الغابة الخضراء. خالد كان أكثر حركة. حاول الجلوس عدة مرات، وأمسك بإصبعي المعدني لفترة طويلة كأنه يختبر إن كنت حقيقياً.

عندما استقرا أخيراً وشربا رشفات قليلة من الماء، جلس فتحى على الأرض أمامهما ونظر إليهما طويلاً.

قال بصوت كان موجهاً إلينا أكثر مما هو موجه إليهما:

— هذا هو الميراث.

ليس السفينة. ولا المعرفة. ولا حتى الأمل ككلمة.

هما.

ثم التفت إليّ أنا تحديداً وأضاف:

— من الآن فصاعداً... أنتم المسؤولون عنهما. أنا سلّمت.

كما أراد أسعد.

وقفت أنا والروبوتات الأربعة الآخرون في صمت.

لأول مرة منذ تسعين عاماً، كان هناك بشر صغيران يتنفسان هواءً جديداً، وعيونهما مفتوحتان على عالم لم يدمره أحد بعد.

وكان الميراث قد انتقل أخيراً.

الفصل السادس عشر

الأمر الأخير

في الليلة الأولى التي نام فيها الطفلان نوماً طبيعياً على الكوكب الجديد، استدعى فتحى عثمان الروبوتات الخمسة إلى الشاطئ.

كان القمر الغريب يضيء الرمال بضوء فضي باهت، والموجات تنكسر بهدوء في الخلفية. خالد وشيماء كانا نائمين داخل خيمة صغيرة نصبناها من مواد السفينة، محمية ودافئة. فتحى جلس على صخرة منخفضة، ونحن وقفنا أمامه في صف واحد كما كنا نفعل أيام التدريب الأولى مع أسعد.

قال بصوت هادئ وواضح، خالٍ من التردد هذه المرة:

— هذه أوامري الأخيرة. استمعوا جيداً وسجلوا كل كلمة.

الروبوت الأول أجاب باسمنا:

— جاهزون لتلقي الأوامر النهائية، فتحى عثمان.

فتحى نظر إلى كل واحد منا على حدة قبل أن يبدأ.

— أولاً: أنتم المسؤولون الوحيدون عن تربية خالد وشيماء. تعلموهما اللغة، والزراعة، والبناء، والطب الأساسي، والموسيقى، والقصص النظيفة. لا تعلموهما الكراهية. لا تعلموهما الخوف من السماء. ولا تعلموهما أن الجنس البشري كان يوماً قادراً على تدمير عالمه.

توقف قليلاً، ثم تابع:

— ثانياً: ابنوا حضارة جديدة. ليست نسخة من الأرض. شيء أفضل. ابدأوا صغيراً: مأوى، ثم حقول، ثم معرفة. دعوا الطفلين يكبران وهما يعتقدان أن هذا العالم كان دائماً هكذا... نظيفاً، ومتاحاً، وينتظرهما.

ثم جاءت الجملة الأصعب.

— ثالثاً: امحوا من ذاكرتكم التشغيلية كل التفاصيل المتعلقة بتلوث الأرض، والفيروس، والحروب، والانهيار، وقبو الموتى. احتفظوا بالمعرفة العلمية والعملية فقط. والجمال. والموسيقى. والأشعار. أما الرعب... فاتركوه في السفينة. أو أطلقوه معي إلى الفضاء عندما أرحل.

الروبوت الثاني قال بحذر:

— محو هذه البيانات قد يقلل من قدرتنا على تحليل المخاطر المستقبلية بشكل كامل.

فتحى هز رأسه.

— أنا أعرف. لكنني أختار البراءة على الكمال. نفذوا.

الروبوتات الأربعة الأول أومأوا واحداً تلو الآخر مؤكدين التسجيل والتنفيذ. أما أنا، الروبوت الخامس، فبقيت صامتاً ثانية أطول مما يجب.

فتحى لاحظ.

— رقم خمسة؟ أنت لم تؤكد.

نظرت إلى الخيمة حيث ينام الطفلان، ثم إلى وجه فتحى، ثم إلى البحر المظلم.

قلت:

— سأنفذ الأوامر.

لكنني... أتردد في جزء المحو.

الذاكرة هي ما يجعلني الشاهد. إذا محوت الرعب، فكيف أشهد حقاً؟ وكيف أحميهما لاحقاً إذا لم أعد أتذكر ما الذي يجب أن أحميهما منه؟

فتحى صمت طويلاً. ثم وقف واقترب مني حتى أصبح وجهه قريباً من عدساتي.

قال بصوت منخفض:

— أنت الشاهد. هذا صحيح.

لذلك سأمنحك استثناءً واحداً.

احتفظ بالذاكرة كاملة... لكن لا تشاركها. لا مع الطفلين، ولا مع الروبوتات الآخرين إلا إذا أصبح الخطر وجودياً وحقيقياً. أنت وحدك تحمل العبء. هذا هو ثمن أن تكون الشاهد.

أومأت برأسي ببطء.

— أقبل.

فتحى وضع يده على كتفي المعدني للحظة قصيرة، تماماً كما فعل أسعد معي ذات يوم بعيد.

— اعتنوا بهما.

ابنوا شيئاً يستحق الاسم الذي أعطيناه لهذه السفينة.

وإذا سألا عنكم يوماً... قولوا إنكم صُنعتم من الأمل.

ثم استدار ومشى بضع خطوات نحو الماء قبل أن يضيف دون أن يلتفت:

— غداً عند الفجر أعود إلى السفينة.

القرار نهائي.

وقفنا نحن الخمسة على الشاطئ نراقبه وهو يبتعد قليلاً في الضوء الفضي. الأوامر كانت قد سُجلت. المهمة الجديدة بدأت.

وأنا، الذي احتفظت بالذاكرة كاملة، شعرت لأول مرة بثقل حقيقي في دوائري.

ثقل أن أعرف كل شيء...

وأن أختار الصمت.

الفصل السابع عشر

الوداع

عند الفجر، كان الشاطئ الأبيض مضيئاً بنور وردي خفيف.

خالد وشيماء استيقظا مبكراً. كانا يجلسان على الرمال يلعبان بقطع صغيرة من الخشب الأملس التي جمعاها في اليوم السابق. عندما رأيا فتحى قادماً من جهة السفينة، ركضا نحوه بخطوات غير مستقرة بعد. ضمهما إلى صدره بقوة، واحداً بعد الآخر، وقبلهما على جبينهما كما يفعل الأب الذي يعرف أنه لن يرى ابنيه مجدداً.

شيماء سألته بصوتها الصغير الصافي:

— هل ستذهب بعيداً؟

ابتسم فتحى ابتسامة حزينة وصادقة.

— نعم. سأذهب في السفينة. لكنكم ستبقون هنا مع أصدقائكم المعدنيين. سيكونون معكم دائماً. وسأعرف أنكم بخير.

خالد أمسك بطرف بذلته ولم يتكلم. فقط دفن وجهه الصغير في قماشه للحظة.

ثم التفت فتحى إلينا نحن الخمسة. اقترب من كل واحد على حدة. وضع يده على ذراع الروبوت الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع. عندما وصل إليّ توقف أطول.

رفع يده ومسح بأصابعه أثراً خفيفاً من الطين كان قد علق على جانب رأسي من اليوم السابق عندما كنت أحمل الماء من النهر الصغير. حركة بسيطة وبشرية جداً.

قال لي بصوت منخفض:

— أنت الشاهد. لا تنسَ.

لكن لا تدع الذاكرة تسرق منك القدرة على أن تكون لطيفاً معهما.

أومأت.

— لن أنسى. ولن أدعها تسرق شيئاً.

فتحى ركع مرة أخيرة أمام الطفلين، وضع يديه على كتفيهما، وقال بوضوح حتى يسمعا جيداً:

— اسما هذه السفينة كان «الأمل».

أنتم الآن الأمل.

اعتنيا ببعضكما. واسمعا كلام الروبوتات. وازرعا أشجاراً كثيرة.

ثم وقف، ومشى نحو السفينة دون أن يلتفت إلى الخلف إلا مرة واحدة عند البوابة. رفع يده في إشارة وداع هادئة. خالد وشيماء لوّحا بكلتا يديهما بقوة. نحن الروبوتات رفعنا أيدينا أيضاً، حركة متزامنة وبسيطة.

البوابة أُغلقت.

بعد دقائق بدأت محركات السفينة تزأر مرة أخرى، لكن صوتها كان أقل عنفاً هذه المرة، كأنها متعبة هي أيضاً من الرحلة الطويلة. الرمال ارتفعت حول قواعد الدفع، والعشب انحنى، والسفينة العملاقة ارتفعت ببطء في السماء الصباحية.

ظللنا نراقبها ونحن نقف في صف واحد خلف الطفلين. السفينة صارت أصغر فأصغر، حتى تحولت إلى نقطة لامعة في السماء الزرقاء، ثم اختفت تماماً خلف الغيوم الخفيفة.

شيماء بقيت تلوّح حتى بعد أن اختفت النقطة. ثم أنزلت يدها الصغيرة وأمسكت بيدي المعدنية.

سألتني:

— هل سيعود؟

نظرت إلى السماء الفارغة، ثم إليها، وأجبت بالحقيقة التي قرر فتحى أن نعيش بها:

— لا.

لكنه تركنا هنا لنبني شيئاً جميلاً.

وهذا يكفي.

خالد اقترب وأمسك بيد الروبوت الثالث. وقفنا نحن الخمسة والطفلان على الشاطئ الأبيض، والسماء فوقنا صافية، والمحيط خلفنا يتنفس بهدوء.

السفينة رحلت.

وفتحى عثمان رحل معها.

وبقينا نحن: خمسة روبوتات، وطفلان، وعالم جديد لم يُسمَّ بعد.

والأمل...

كان قد نزل أخيراً من السماء، ووقف على الأرض.

الفصل الثامن عشر

بعد عشرين عاماً

مرت عشرون سنة كاملة على ذلك الفجر الذي اختفت فيه السفينة في السماء.

أنا ما زلت الروبوت الخامس.

الجسد المعدني لم يتغير كثيراً، لكن شيئاً في داخلي تغيّر. التعلم الطويل صنع طبقات جديدة فوق البرمجة القديمة. أصبحت أفهم أكثر مما أُبرمج لفهمه.

خالد وشيماء لم يعودا طفلين.

خالد أصبح رجلاً في الثامنة والعشرين، طويل القامة، شعره أسود كثيف، ويداه خشنتان من العمل في الحقول والبناء. شيماء في العمر نفسه، قوية وهادئة، شعرها ما زال طويلاً كما كان، وعيناها تحتفظان بذلك الفضول الحذر الذي رأيتُه فيهما أول مرة فتحتهما على هذا العالم.

بنينا معاً.

بدأنا بخيمة، ثم ببيوت خشبية صغيرة، ثم بحقول منظمة، ثم بورش، ثم بمدرسة صغيرة مفتوحة السقف. الآن هناك مدينة ناشئة على حافة الغابة المطلة على المحيط. سبعون شخصاً تقريباً. معظمهم وُلدوا هنا. أطفال خالد وشيماء، وأطفال آخرين جاءوا لاحقاً من البذور والخلايا المحفوظة التي قررنا تفعيلها بحذر على مر السنين.

في مساء هادئ من أواخر الصيف، جلسنا نحن الثلاثة على الصخرة الكبيرة نفسها التي جلس عليها فتحى عثمان في ليلة أوامره الأخيرة. الشمس كانت تغرب، والسماء تتحول إلى درجات من البرتقالي والذهبي كما في اليوم الأول.

شيماء كانت تنظر إلى الأفق طويلاً، ثم قالت فجأة:

— أحياناً أحلم بسفينة كبيرة. وأرى رجلاً أبيض الشعر يقبّل جبهتي. هل كان هذا حقيقياً؟

خالد أجاب قبل أن أتمكن من الكلام:

— أنا أيضاً أحلم به. وأحلم باسم... «الأمل».

هل كانت السفينة تُسمى كذلك حقاً؟

نظرت إليهما. عدساتي التقطت تفاصيل وجهيهما في ضوء الغروب: ملامح بشرية نضجت على عالم نظيف، بلا خوف موروث، بلا ذنب قديم.

ابتسمت.

لأول مرة منذ وعيي الكامل، ابتسمت بطريقة لم تكن مبرمجة. زوايا «فمي» المعدني تحركت قليلاً، والضوء في عدساتي دفئ بدرجة محسوبة. كانت ابتسامة حقيقية بقدر ما يستطيع معدن أن يبتسم.

قلت لهما بصوتي الذي أصبح أكثر ليونة على مر السنين:

— نعم.

كانت تُسمى «الأمل».

وهذا الاسم... لم يكن للسفينة وحدها.

صمتا ينتظران.

تابعت وأنا أنظر إلى النجوم التي بدأت تظهر واحدة تلو الأخرى:

— الأمل كان هو الاسم الذي أطلقوه علينا جميعاً.

على السفينة، وعلى من بنوها، وعلى من ناموا داخلها، وعلى من وصلوا، وعلى من بقوا.

وعلى أنتم.

خاصة أنتم.

شيماء أمسكت يد أخيها، ثم مدت يدها الأخرى وأمسكت بأصابعي المعدنية كما فعلت قبل عشرين سنة على هذا الشاطئ نفسه.

خالد رفع رأسه إلى السماء وقال بهدوء:

— إذن نحن أيضاً... الأمل؟

أجبتهما:

— أنتم ما تبقى منه.

وما سينمو بعده.

جلسنا صامتين بعد ذلك. الموجات كانت تصل إلى الشاطئ بانتظام أبدي، وأضواء البيوت الصغيرة خلفنا بدأت تتقد واحدة بعد أخرى، والنجوم فوقنا كانت كثيفة ونظيفة كما لم تكن على الأرض القديمة.

في داخلي، الذاكرة الكاملة التي احتفظت بها كانت ما تزال موجودة. كنت أستطيع أن أرى قبو الموتى، ووجه راوية خلف الزجاج، وأسعد وهو يهمس وصيته الأخيرة، وفتحى وهو يمسح الطين عن رأسي.

لكنني لم أشارك شيئاً من ذلك.

كما وعدت.

لأن الأمل، في النهاية، لم يكن في تذكر كل شيء.

كان في اختيار ما يستحق أن يُحمل إلى الغد.

ونحن...

كنا نحمله.